الصهيونية فى العقل العربى

الدكتور/ عصمت سيف الدولة

الطبعة الأولي

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

تقديم

تفتح وعى شباب عام ٢٠٠٠ على الإنتفاضة الفلسطينية الجديدة بالأرض المحتلة، التى أثارت عنده العديد من المشاعر الوطنية والدينية، كما أثارت لدية بنفس القدر عشرات الأسئلة وعلامات الاستفهام.

بدأت الأسئلة بسؤال كبير وبسيط : ماذا يحدث فى فلسطين؟ وما هو أصل الحكاية؟

وبالمتابعة والبحث، تتابعت التساؤلات بتتابع الأحداث، وبرزت أمامه عشرات العناوين والأطراف والمصطلحات الغير مفهومة، فهو يسمع مثلاً عن : خريطة الطريق المعروضة الآن (مايو ٢٠٠٣)، ويسمع عن تقرير جورج تينت (ومن هو تينت أصلاً؟)، ثم هناك (السلطة) الفلسطينية وهى غير (الدولة) الفلسطينية التى لم توجد بعد!

ويقال إن كل هذا له أصل هو اتفاق تم عام ١٩٩٣ بين الفلسطينيين والاسرائيليين وأطلق عليه «اتفاقية أوسلو»، التى بنيت هى الأخرى على الأسس التى أقرها مؤتمر اسمه مؤتمر

مدريد ١٩٩١ . وأن كل ذلك تم التمهيد له باتفاقية الصلح الأولى بين مصر وإسرائيل الموقعة فى ١٩٧٩ والمشهورة باسم «كامب ديفيد».... إلخ ، كل هذه اتفاقيات لا يعلم عنها معظم الشباب أكثر من أسمائها.

ثم يسمع الشباب أن أصل كل هذه الاتفاقيات هو قرار للأمم المتحدة صدر فى عام ١٩٦٧ وسمى بالقرار رقم ٢٤٢ . وبموجبه قبلت الدول العربية ولأول مرة الاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود مقابل انسحابها من جزء من الأراضى المحتلة.

وهم يخبرونه أنه ليس القرار الوحيد. فهناك عشرات القرارات أشهرهم: القرار ١٨١ المشهور بقرار التقسيم، والقرار رقم ١٩٤ الخاص بحق العودة للاجئين الفلسطينيين، والقرار رقم ٣٣٨ الصادر فى ١٩٧٣ أثناء حرب أكتوبر... إلخ. وهى قرارات لا يعلم الشباب عنها هى الأخرى شيئًا إلا أرقامها.

وهذا ليس كل شيء، فهناك قبل ذلك وبعده سلسلة متتالية من الحروب والصراعات بين العرب وبين إسرائيل فى ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢. ولكل حرب منها أحداثها وتفاصيلها وملابساتها الخاصة. التى تحتاج هى الأخرى للدراسة والبحث.

وهناك أيضًا الأحداث الفارقة فى تاريخ الصراع مثل المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٩٧ ووعد بلفور فى ١٩١٧ وصك الانتداب البريطانى على فلسطين فى ١٩٢٢ والثورة الفلسطينية فى ١٩٣٦ وقرار تقسيم فلسطين فى ١٩٤٧ و...

ويسمع الشباب أيضًا عن مذابح دير ياسين وكفر قاسم وبحر البقر ومصنع أبو زعبل كما يسمع عن أيلول الأسود وتل الزعتر وصابرا وشاتيلا والانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧ .

ويتابع الشباب كيف أن كل القوى الكبرى فى العالم متداخلة فى الصراع بحكم مصالحها، ولكل منها مواقفه وضغوطه. وعلى الأخص الولايات المتحدة الأمريكية، الحليف الأول لإسرائيل، وهو ما يعنى أنه يجب عليه التعرف على طبيعة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، وتاريخها ، وأفاقها فى المستقبل .

أما عن الفلسطينيون أنفسهم، فيستمع الشباب إلى قصص وتحليلات متناقضة : بعضها يصل إلى حد اتهامهم بأنهم يستحقون ما يحدث لهم لأنهم باعوا أراضيهم لليهود وفرطوا فيها، والبعض الآخر وعلى النقيض يعتبر أنهم يمثلون الآن خط الدفاع الأول عن مجمل الأمة بدليل العمليات الاستشهادية البطولية غير المسبوقة التى تتم الآن فى الأراضى المحتلة.

ويرصد الشباب كذلك أن الفلسطينيين ليسوا طرفًا واحدًا،

فبالإضافة إلى السلطة الفلسطينية هناك حماس والجهاد وفتح والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وعرب ١٩٤٨ و.... ولكل منها مواقفه وسياساته.

فى ظل هذه الشبكة الكثيفة المحيرة من الاتفاقات، والقرارات والأحداث والتواريخ، والقوى، والمنظمات والمفاهيم، يتخوف الشباب من ثقل وعبء الجهود المطلوبة لدراسة كل هذه المواضع بكل تفاصيلها ويتساءل أين الحقيقة فى كل هذا ؟ وكيف يمكنه أن يميزها أو يترجم حيرته فى أسئلة من نوع :

* هل خريطة الطريق هى الحل؟ وما هى هذه الخريطة أساساً.

* وهل اتفاقية الصلح بين مصر وإسرائيل عمل وطنى لأنه أعاد سيناء أم هى غير ذلك لأنها أخرجت مصر من الصراع ومكنت إسرائيل من الانفراد بالأمة العربية؟ وأين نجد نصوصها؟

* وما هو الموقف الصحيح من قضية السلام؟ وهل وجود إسرائيل حق أم باطل؟ أم هو أمر واقع يجب أن نقبله تحت ضغط موازين القوى الأمريكية والدولية، إلى أن تتعدل الظروف؟

وهل يجوز أن نترك حقوقنا وأن نعدل مبادئنا لأننا الأضعف؟ ويتساءل الشباب أيضاً عن أسباب الفشل، فإذا كان الحق

معنا فلماذا لم ننجح فى تحرير فلسطين حتى الآن ؟ ولماذا فشل السابقون ؟

وأين الأخطاء التى ارتكبوها ليفشلوا ؟ وهل يعقل أن تخطئ أجيال بأكملها ؟ وإذا كان ذلك صحيحاً ، فما الذى يميز جيلنا ؟ وهل يمكن أن ننجح فيما فشل فيه الآخرون رغم صغر أعمارنا وقلة خبراتنا ومحدودية معرفتنا ؟ أم علينا أن نستسلم إلى موازين القوى الحالية ونقبل ما يعرض علينا من سلام أمريكى إسرائيلى ؟

وإذا أردنا أن ننجح وسط هذا الخضم الكبير من الصعوبات ، فمن أين نبدأ ؟

كانت هذه نماذج من أسئلة كثيرة يطرحها الشباب هذه الأيام، ولا يجد لها إجابة واضحة .

***

وكمحاولة للمساهمة فى الإجابة عليها، أقدم هذه الدراسة الهامة للدكتور عصمت سيف الدولة، «الصهيونية فى العقل العربى»، فهى تضع أيدينا على المفاتيح الرئيسية اللازمة للإجابة على كل هذه التساؤلات.

محمد سيف الدولة

يونيو ٢٠٠٣

ما الصهيونية؟:

في البدء كانت الصهيونية نظرية، أصبحت استراتيجية بالعناصر الثلاثة لكل استراتيجية: التنظيم، الخطة، الهدف. ثم أصبحت الصهيونية مواقف وحركة ومعارك تكتيكية. ولا يعنى قولنا إن الصهيونية كانت ثم أصبحت إنها انتقلت من مرحلة انقضت إلى مرحلة جديدة، بل يعنى أنها قد نمت وأضيف إلى مضمونها الفكرى مضمون استراتيجى ثم مضامين تكتيكية. فهى نظرية على المستوى الفكرى، وهى تنظيم ذو خطط وأهداف محددة على المستوى الاستراتيجى وهى حركة جزئية أو مرحلية. فكرية أو عملية، فردية أو جماعية، على المستوى التكتيكى، وكلها صهيونية.

ويكون من المفيد لنا، نحن العرب، حين نتحدث عن الصهيونية أو نستمع إلى حديث عنها، حين تواجهنا أو نواجهها، أن نعرف ونحدد المستوى الصهيونى الذى يدور عليه الحديث أو تجرى عليه المواجهة. قلت مفيداً، وأقول إنه

حيوى. أعنى أن هذه المعرفة بمستويات الصهيونية، والاستفادة بها مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا نحن العرب. بحيث أن أى خلط أو خطأ، أى جهل أو تجاهل، لمستويات الصهيونية قد يؤدى - فى صراعنا معها - إلى هزيمتنا هزيمة لا نعرف كيف وقعت. وأفدح الهزائم وأكثرها تدميراً هى التى لا يعرف المهزوم فيها كيف وقعت.

ترجع هذه الحيوية إلى سببين متكاملين:

السبب الأول: إن مستويات الصهيونية، مثل مستويات أية حركة سياسية أخرى يحكم بعضها بعضاً ويحدده. فالنظرية هى المبدأ والمقياس الثابت. فهى تحكم الاستراتيجية وتحددها. بمعنى أن الاستراتيجية، مهما تعدلت خططها، أو حتى تغيرت، لا تستطيع أن تفلت من إطار النظرية. وستبقى غايتها دائماً تحقيق الهدف الذى حددته تلك النظرية. ثم إن المواقف الفكرية أو الحركية، الجزئية أو المرحلية، الفردية أو الجماعية، السلمية أو العنيفة، التى تقع على مستوى التكتيك تكون محكومة بالاستراتيجية طبقاً لهذا يكون من الحيوى بالنسبة إلينا، حين نتحدث عن الصهيونية أو حين نواجهها، أن نميز بين تلك المستويات الثلاثة، ثم نتعرف أين يقع الحديث أو المواجهة منها. ثم أن نكتشف، بالرغم من كل تمويه، حقيقة الموقف

التكتيكي برده إلى الخطة الاستراتيجية لنعرف على أى وجه يخدمها. ثم نراقب الاستراتيجية وننتبه إلى ما قد يصيبها من تغيرات لابد لها من أن تكون أكثر ملاءمة عند أصحابها، لتحقيق الهدف. فإذا غم علينا الأمر رددناه إلى النظرية.. إذ هى المصدر الأول لكل حركة والمقياس الأخير لكل موقف.

السبب الثانى : إن مستويات الصهيونية، مثل مستويات أية حركة سياسية أخرى، تتراكم وتتراكم متجهة. من الفكر المجرد إلى الواقع العينى. من النظرية إلى الاستراتيجية إلى التكتيك حيث تدور المعارك الفعلية متنوعة المضمون متنوعة القوى متنوعة الأسلحة، ولكن خط الانتصار، أو الهزيمة يتجه - بالعكس - من الواقع العينى إلى الفكر المجرد. يتم النصر أو الهزيمة على المستوى التكتيكى، وبتراكمه تهزم الاستراتيجية أو تنتصر، ولكن النصر النهائى، أو الهزيمة، لا تتم إلا بهزيمة النظرية ذاتها، أى حين لا تجد أحداً يقتنع بها وينطلق منها إلى استراتيجية جديدة، أو بانتصار النظرية ذاتها حين يتمكن الطرف المنتصر تكتيكًا واستراتيجيًا من صياغة الواقع طبقًا لنظريته. وبناء على هذا يكون من الأخطاء القاتلة لأى طرف أن يحسب النصر التكتيكى نصرًا استراتيجيًا أو يحسب النصر الاستراتيجى حسمًا نهائيًا للنزاع. وبالعكس أن يعتبر الهزيمة التكتيكية هزيمة استراتيجية أو يعتبر

الهزيمة الاستراتيجية حسماً نهائياً للصراع.

في عام ١٩٦٧ أدرك جمال عبدالناصر مستوى الهزيمة بالرغم من جسامتها، وقدم مثالاً رائعًا للقائد الذى يعرف طبيعة المعارك التى يخوضها، فبعد شهرين فقط من الهزيمة الجسيمة رفع شعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة»، وشعار «لا مفاوضة، لا صلح، لا اعتراف» وفى العام ذاته سئل وزير خارجية الصهاينة، أبا ايبان، عما إذا كانت الصهيونية ستفعل لو نجح العرب فى تدمير إسرائيل فقال: كنا سنبدأ من جديد لإقامة دولة إسرائيل.. وكان كلاهما يعبران عن السمة التكتيكية للنصر الصهيونى والهزيمة العربية عام ١٩٦٧.

الصهيونية نظرية:

الصهيونية نظرية فى القومية. تقول: إن اليهود أمة. ولابد أن ننتبه إلى هذا المفهوم الصهيونى للأمة والقومية:

أولاً: لأن معرفته معرفة واضحة هى الضابط النهائى للمواقف الصحيحة من الصراع العربى الصهيوني.

ثانيًا: لأن مشكلة الأمة والقومية مشكلة قائمة فى الوطن العربى على المستويين الفكرى والحركى. أى إننا – على وجه – نستعمل فى حديثنا عن الأمة العربية ومستقبلها ذات الألفاظ التى يستعملها الصهاينة

عن الأمة اليهودية ومستقبلها. وقد يؤدى هذا إلى أن تختلط فى أذهاننا المفاهيم فنتصور أن لنا ولهم نظرية واحدة فى الأمة والقومية.

اليهودية دين كما نعلم. واليهود هم من يؤمنون بذلك الدين، ولما كان الإيمان بالدين، أى دين، لا يتوقف على الجنس أو اللون أو اللغة أو الانتماء الاجتماعى، فهو إنتماء مفتوح لكل من يؤمن، فإننا نستطيع أن نتبين بسهولة أن اليهود، بمجرد أنهم يهود، لا يكونون أمة. والواقع أنه لا توجد فى التراث العالمى كله، على كثرة ما فيه من نظريات فى الأمة والقومية، نظرية تقول إن اليهود أمة إلا النظرية الصهيونية. فالأمة فى الصهيونية لا تحتاج فى تكوينها التاريخى إلى وحدة الدم أو الجنس أو اللغة أو الأرض أو الحياة الاقتصادية.. بل يكفى لتكوين الأمة الانتماء الدينى وما يولده من قرابة روحية تميز بين اليهود وغيرهم من الأمم.

وتختلف هذه النظرية اختلافًا أساسيًا عن مفهوم الأمة والقومية فى الفكر العربى الحديث. حيث الأمة «مجتمع ذو حضارة متميزة من شعب معين مستقر على أرض معينة خاصة ومشتركة تكون نتيجة تطور تاريخى مشترك». ويدخل فى هذا التعريف كل ما تعلمناه من مميزات الأمة كاللغة أو الثقافة أو الدين فتلك عناصر التكوين الحضارى وهى تختلف من أمة إلى

أمة تبعًا لظروف التطور التاريخى الذى كونها. أما عن المصالح الاقتصادية المشتركة فهى متوافرة فى كل مجتمع حتى لو لم يكن أمة. وأما الحالة النفسية المشتركة والولاء المشترك.. إلخ. فتلك معبرات فى الأفراد عن وعيهم الانتماء إلى أمة قائمة، ولكن الوجود القومى، الأمة، لا يتوقف عليها. على أى حال فإن الفارق الأساسى بين النظرية الصهيونية والنظرية العربية فى الأمة هو الاختصاص بالأرض والتفاعل معها حضاريًا.

الصهيونية استراتيجية:

للاستراتيجية عناصر ثلاثة: الأداة، الخطة، الهدف.

(١) **أما الأداة الصهيونية**، فهى المنظمة الصهيونية، وليس مؤسستها السياسية المسماة إسرائيل، كما قد يتبادر إلى الذهن. الصهيونية منظمة هى التى جمعت الصهاينة وحشدت جهودهم من أجل هدفها. وهى التى بدأت بالغزو السلمى قبل ١٩٤٨ لأرض فلسطين فى شكل الهجرة وشراء الأراضى، وهى التى عبأت ودربت وسلحت قواها استعدادًا للغزو المسلح. وهى التى غزت ثم أقامت دولة إسرائيل على قطعة محدودة من الأرض العربية. وهى التى تقف وراء إسرائيل وتستخدمها كقاعدة انطلاق إلى إسرائيل الكبرى التى

تمثل هدفها النهائى. ومن هنا ندرك أو ينبغى أن ندرك، أن القول الفصل فى مصير الصراع العربى الصهيونى ليس ما تقوله أو تفعله أو تقبله إسرائيل القائمة بل ما تقوله أو تفعله أو تقبله الصهيونية المنظمة على المستوى العالمى. والواقع أن إسرائيل ليست إلا المشروع المصغر للهدف الصهيوني. وهى لا تمثل من بين أدوات الغزو الصهيونى أخطرها وأقواها تأثيراً فيجاورها ووراءها وأقوى منها أثراً تلك القوى العالمية التى عبأتها الصهيونية المنظمة من دول وجماعات وأفراد وأفكار وأموال وإعلام لتدعم قوة إسرائيل ثم تمد لها الأرض العربية حتى تتقدم عليها بأقل خسائر ممكنة.. وقد تجنح الحكومة فى إسرائيل إلى السلام وقد تقبل التخلى عن التوسع ولكن هذا لن يكون عند المنظمة الصهيونية إلا استسلاماً أو خيانة من حكام الدولة القاعدة ولن تلبث الصهيونية أن تغير من تشكيل الحكم فى دولتها الصغرى لتستأنف مسيرتها إلى دولتها الكبرى.

(٢) **أما الخطة الاستراتيجية الصهيونية** فتتميز أساساً بأنها عدوانية. ذلك، لأنها، بحكم الفرق بين منشأ القوة وهدفها، لابد لها أن تكون هجومية. وقد تقف إسرائيل موقفاً دفاعياً. وقد تتقهقر ولكن هذا لن

يكون إلا موقفا تكتيكيًا فى معركة تكتيكية فى نطاق استراتيجية هجومية عدوانية أصلاً. وهو ما يعنى تمامًا أنه بعد أى توقف أو تقهقر لا يملك الصهاينة، وأداتهم إسرائيل، إلا أن يعودوا إلى الهجوم إلى أن يتحقق هدفهم الاستراتيجى أو إلى أن تهُزم الصهونية نهائيًا. فهى إذن استراتيجية هجومية عدوانية، هجومية منسوبة إلى الصهاينة، عدوانية منسوبة إلينا نحن العرب.

(٣) **اما الهدف**، فقد حددته النظرية على وجه لا يستطيع أى صهيونى أن يحيد عنه أو يتوقف دونه ويبقى صهيونيًا. ويمكن صياغته على الوجه الآتى: مادام اليهود أمة فإن من حقهم أن يفعلوا ما تفعل كل الأمم، وأن يعاملوا كما تعامل الأمم. ومن حق الأمم أن تقرر مصيرها بنفسها مستقلة عن أية أمم أو شعوب أخرى. وهو ما يعنى أن تكون لها دولتها القومية. والدولة لا تقوم إلا من شعب معين على أرض معينة. أما الشعب المعين فهو كل اليهود أيًا كانوا من أطراف الأرض. عليهم أن يجتمعوا على أرض دولتهم. أما عن الأرض المعينة، فهم يقرأون فى كتاب يسمونه التوراة، وهو كتاب ظهر لأول مرة فى عهد الملك يوشا بعد وفاة

موسى بن عمران بسبعة قرون كاملة (سفر الملوك الثانى - إصحاح ٢٢). يقرأون «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (سفر التكوين إصحاح ١٥ أية ١٨). إلا أنها أرضهم تاريخيًا؟.. لا يقرأون وعد «يهوه» لإسرائيل بأن سيقوده «إلى مدن عظيمة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وأبار محفورة لم تحفرها، وكروم زيتون لم تغرسها» (سفر التثنية - إصحاح ٦ أية ١١). وماذا عن سكانها وأصحابها؟.. يقرأون «إنى أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك» (سفر الخروج إصحاح ٢٣ أية ٢٢).

وهكذا نعرف ما يعرفه الصهيونيون، وهو أن هدفهم الاستراتيجى الاستيلاء على أرض عربية تمتد من نهر النيل إلى نهر الفرات، وإخلاؤها من سكانها ليقيم فيها يهود العالم كله دولتهم القومية.

الصهيونية تكتيكًا:

لا يمكن حصر المواقف والأساليب والمراحل التكتيكية التى تترجم الخطط الاستراتيجية. ذلك لأنه على المستوى التكتيكى تدور المعارك الفعلية ويلتحم المتصارعون وتتعدد

الأطراف المشتركة بحيث لا يستطيع أى طرف أن ينفرد باتخاذ موقف تكتيكى غير متأثر بالموقف المضاد، ولا أن يستعمل سلاحًا بعيدًا عن قياس مضائه على مضاء الأسلحة التى يواجهها. باختصار يمثل المستوى التكتيكى الميدان المرن للمناورة وفيه تتجلى كفاءة المقاتلين والقادة، لا فى ميدان القتال فقط، ولكن فى المقدرة على مواجهة المواقف الطارئة. والملاءمة بين حركاتهم وحركات القوى المضادة.. وتتوقف تلك المقدرة إلى حد كبير على الإدراك الثابت للتناقض بين الخطط الاستراتيجية للمتصارعين حتى يستطيع كل مقاتل أو مشترك فى الصراع أن يطور من أساليبه التكتيكية بأقصى قدر من المرونة، ولكن بحيث لا تنتقل أساليبه من مجال خدمة استراتيجيته إلى مجال خدمة استراتيجية العدو. فيكون قد هزم نفسه.

ومع ذلك فلا بأس من أن نقول إن حكماء صهيون قد أطلقوا حركة الصهيونية من أية قيود إنسانية أو خلقية من أول القتل إلى الكذب وقالوا يوصون أبناء صهيون: «اضربوهم وهم يضحكون، اسرقوهم وهم لاهون، قيدوا أرجلهم وأنتم راكعون، ادخلوا بيوتهم واهدموها، تسللوا إلى قلوبهم ومزقوها».

الهزيمة والاستسلام:

طبقًا للمقاييس التى ذكرناها تحقق الصهيونية هدفها بإحدى طريقتين هزيمة العرب أو استسلامهم.

إما بالاستيلاء على الأرض العربية عنوة وإخلائها من البشر وإقامة دولة إسرائيل عليها، وإما تخلى العرب عن الأرض وتركها لهم خالية ليقيموا عليها دولتهم، ولا نقصد من قولنا خالية ألا يوجد فيها عربى على الإطلاق ولكن نقصد أن لا يقيم فيها إلا العربى الذى تقبل إسرائيل إقامته. ذلك لأنه لا يخفى أن دولة إسرائيل ستكون فى حاجة إلى بشر من الدرجة الثالثة يعفون ابناءها من عبء العمل المرهق أو العمل القذر وكمذيعين على موجات البث باللغة العربية، وجواسيس أيضًا.

المهم أنه نتيجة الخلط المضطرب فى المفاهيم والمواقف فى المرحلة الحالية أصبح من اللازم التفرقة بين الهزيمة والاستسلام.

إن الهزيمة هى التخلى عنوة عن هدف تكتيكى أو استراتيجى. **أما الاستسلام** فهو قبول التخلى عن هدف تكتيكى أو استراتيجى بدون صراع. وقد يبدو الفارق بينهما دقيقًا على المستوى التكتيكى. إذ قد يتم الانسحاب بدون قتال من موقع تكتيكى نتيجة لتقدير القيادة لموازين القوى،

وتجنب خسائر محققة. هذا ليس استسلامًا ولكنه مناورة، واحدة من فنون الصراع التي يجيدها الراسخون في علم الصراع وفنونه. وقد تكون مناورة الانسحاب والتخلي عن الأرض، بل حرقها وتدميرها، أبرع تكتيك يخدم الهدف الاستراتيجي. كما فعل الروس مرتين أمام نابليون وهتلر. وفي صراعنا مع الصهاينة، أعني الصراع العسكري، هُزمنا عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ وهزمناهم عام ١٩٧٣، وكانت كلها معارك تكتيكية. في عام ١٩٤٨ و١٩٦٧ تخلى كثيرون من الشعب العربي في فلسطين عن الأرض وغادروها وكان ذلك يبدو استسلامًا، ولكن حين تحول الشعب العربي الفلسطيني خارج الأرض المحتلة إلى منظمات مقاتلة وبدأ القتال اقتحامًا أصبح من الممكن القول بأن الهجرة تمثل انسحابًا تكتيكيًا وليس استسلامًا. وحين أمر الرئيس عبدالناصر بسحب الجيش المصري من سيناء عام ١٩٥٦ حتى لا تطوقه القوات الانجليزية والفرنسية الهابطة خلف منطقة القتال كان انسحابا تكتيكيًا وليس استسلامًا.. وهكذا.

ولكن الفارق بين الهزيمة والاستسلام يبدو واضحًا حين تقع الهزيمة على المستوى التكتيكي فيتم التراجع على المستوى الاستراتيجي، أو حين تقع الهزيمة على المستوى

الاستراتيجى فيتم قبول وتبنى نظرية المعتدين. وهو هنا استسلام لأنه ليس النتيجة اللازمة للهزيمة. فليس من شأن الهزيمة فى المعارك التكتيكية، أعنى الجزئية أو المرحلية، أن تحسم المعركة على مستواها الاستراتيجى، وبالتالى يكون التراجع الاستراتيجى غير مبرر، أى تراجعاً بدون صراع، أى استسلاماً، كما أن الهزيمة حتى على المستوى الاستراتيجى لا تعنى أن الصراع قد حسم وإنما يحسم فقط حين يتبنى المنهزمون نظرية المنتصرين. وأروع مثال على كل هذا معارك العرب ضد الغزو الصليبى. انهزم العرب فى أكثر من موقعة تكتيكية ولكنهم لم يسلموا أبداً بحق الصليبيين فى احتلال الأرض العربية، وحتى حين انهزموا استراتيجياً حين قامت الممالك الصليبية على الأرض العربية، لم يقبلوا أبداً، ولم يتبنوا النظرية الصليبية، فلم يلبثوا، ولو بعد حين، إن حرروا الأرض وهزموا أعداءهم. ومثاله الآخر حركات التحرر الوطنى فى العالم كله. بذرة نموها التى لم يصبها العفن أبدا، هو رفض النظرية الاستعمارية، نظرية تحضير العالم أوروبيا، نظرية تفوق الرجل الأبيض ورسالته الحضارية إلى البشر.. ومن هذه البذرة، وبعد قرون من العجز المادى عن المقاومة، واتت الظروف فنبتت البذرة ثورات لم تلبث أن انتصرت.

أليس هذا واضحًا؟

فما الذى يحدث الآن فى العالم العربى؟

الاستسلام الوشيك:

هزمتنا الصهيونية عام ١٩٤٨ واحتلت جزءًا من فلسطين، وهزمتنا عام ١٩٥٦ وخرجت من المعركة مستولية على مياهنا الاقليمية فى خليج العقبة. وهزمتنا عام ١٩٦٧ واستولت على سيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية. وفى مقابل هذا كنا ندرك أن تلك هزائم تكتيكية ونعد العدة لاستئناف المعارك. تحول شباب اللاجئين إلى مقاتلين واقتحموا حدود وطنهم. وتقدم العرب إلى القائد الذى انهزم يعوضونه ماليًا عن دخل القناة، ويتعاهدون معه على «ألا مفاوضة ولا صلح ولا اعتراف». ومن مرحلة الاعتراف بالخطأ بدأت خطى التصحيح. وعبأت أكثر من دولة عربية كل قواها المادية والبشرية لإعادة إنشاء الجيوش التى سحقتها الهزيمة، واستؤنف القتال تحت اسم حرب الاستنزاف بعد أقل من ستة أشهر من الهزيمة ونسجت القيادة العربية خيوط علاقاتها الدولية على أساس أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. وحين وجُد القادة لم يخذلهم الشعب وجاءت لحظة الاختبار التاريخى حين واجه جنودنا جنود الصهاينة فى فرصة متكافئة

وانهزم الصهاينة فى معركة تكتيكية أيضًا . . ولكنها امدتنا بأقوى أسلحة النصر النهائى : الثقة فى أننا نستطيع أن ينتصر .

بكل منطق قومى أو وطنى أو علمى أو حتى نفسى . . كان ذلك يعنى .

أولاً : أن يدرك العرب أن نصر أكتوبر ١٩٧٣ كان نصراً فى موقعة تكتيكية ، لم يحسم الصراع بين العرب والصهيونية على المستوى الاستراتيجى . ولكنه مهد لحسمه لصالح العرب .

ثانيًا : ألا يتركوا للعدو فرصة التقاط أنفاسه واسترداد قواه والتحول من الدفاع إلى الهجوم .

ثالثًا : أن يحتفظ القادة بالثقة بالنصر التى قدمها إليهم الجنود بعد أن اشتروها بدمائهم الغالية .

رابعًا : أن يكمل العرب ما ينقصهم من عناصر القوة فيضيفوا إلى خططهم التكتيكية الجزئية المرحلية خطة استراتيجية شاملة بعيدة الأمد .

خامسًا : أن يكتشف العرب من خلال عناصر النصر الذى تحقق فى أكتوبر ١٩٧٣ أصوله المبدئية ، أن يكتشفوا من خلال ما حقق عنصر التنسيق العربى من نصر مدى ما تتضمنه الوحدة من انتصار ،

ومدى مسئولية التجزئة عن مرحلة الهزائم.

بكل منطق كان يجب أن نوالى انتصاراتنا العربية التكتيكية، لتحقيق النصر على المستوى الاستراتيجى، لنصوغ الحياة على الأرض العربية طبقًا لنظريتنا القومية، ونقنع الصهاينة بها ليبحث كل منهم عن أرضه التى جاء منها.

ضد كل هذا،

ضد معطياته العينية، المادية والبشرية والفكرية، حدث ما لم يحدث فى تاريخ الشعوب كلها بقدر ما أعرف من تاريخ الشعوب. وفى ذات اللحظة التى انتصرنا فيها فى معركة تكتيكية استسلمنا أو نحن على وشك الاستسلام، لا أقول على المستوى الاستراتيجى، بل أقول على المستوى المبدئى. كانت أمامنا خيارات عدة تقع جميعها على مستوى المعركة التى انتصرنا فيها. كان ممكنًا أن نواصل المعارك. كان فى إمكاننا أن نتوقف مرحليًا. كان فى مقدورنا حتى أن نتخلى عن المكاسب التى حققناها، وهو أقصى، وأقسى، ما يمكن أن يختاره المقاتلون على المستوى التكتيكى. وكان يمكن أن يكون لكل هذا مبررات، من الظروف الدولية، أو من الظروف العربية، أو من الظروف المحلية، سواء كانت ظروفًا سياسية أو اقتصادية أو حتى ذاتية، وسواء كانت ظروفًا صحيحة أو غير صحيحة.. وكنا سنختلف فى هذه المبررات، ولكن خلافاتنا ما

كان لها أن تتجاوز مستواها التكتيكي، أي أن أقصى ما كنا سنختلف فيه هو: «كيف نواصل الصراع حتى نهزم الصهيونية على جميع مستوياتها».

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث..

الذى حدث أننا بطريقة غريبة على التاريخ، غريبة على الشعوب، غريبة على تاريخ الشعب العربى بالذات، انتقلنا نحن الذين انتقلنا. من نصر تكتيكى إلى استسلام مبدئى، موفرين على عدونا عناء الصراع على المستوى الاستراتيجى.

ذلك لأننا سلمنا ببساطة بأن من حق اليهود أن يقرروا مصيرهم، أى إنهم أمة، وأن من حق هذه الأمة أن تكون لها دولة قومية وأن تقوم تلك الدولة القومية، الصهيونية، على جزء من الأرض العربية، وأن يكون هذا الجزء هو بالذات ما أشارت إليه التوراة التى يقرأها الصهاينة. لم يحدث أبداً أن أرغمنا الصهاينة على تبنى نظريتهم هذه، لأنه لم يحدث أبداً أن هزمونا على المستوى الاستراتيجى، ولم يحدث أبداً أن حققوا من الانتصارات ما يحسم الصراع بالنسبة إليهم على المستوى التكتيكى، وقد كان آخر لقاء بيننا هزيمة لهم.. لهذا قلنا ونقول: إننا لم نهزم.. بل نستسلم أو نوشك أن نستسلم..

ألسنا مشغولين بوجود الشعب الفلسطينى ودولته، ألسنا

فـرحين بأن اعـتـرف عـدونـا، أو بعـض أعـداءنًا بـأن هـنـاك شـعـبًـا فلسطينيًا، وأن من حقـه أن يكون له موطنًا، وليس حتى وطنًا؟ ألسنا نتـحاور ونتشاور ونجادل ونختلف حـول صـياغة وجـود الدولة الفلسطينية، هل تقوم مستـقـلة أم فى اتحاد فـيدرالى أو كونفدرالى مع الأردن أو سورية. ألسنا نركض فى أنحاء الأرض جميعًا، فخورين بكرمنا وسماحتنا وسعة أفقنا نعرض السلام مع الصهاينة وندفع ثمنه مقدمًا قبول الوجود الصهيونى على أرض فلسطين؟.. ألسنا نسعى إلى حد المذلة، علنًا وخفية..، ملتمسين من الصهاينة أن يقبلوا حوارنا مؤكدين صدق نوايانا فى قبول جوارهم، على الأرض العربية.. أيها الشباب ألا نسمى الآن، وطننا العربى، منطقة الشرق الأوسط؟..

فما الذى بقى؟

يقولون: «إنها خاتمة جولة وسأتى بعدها جولات».. غدًا تسترد دولة الضفة والقطاع ما بقى من إسرائيل؟.. غدًا نقوى فنستأنف الصراع؟.. غدًا.. يأتى جيل يلغى كل ما فعلناه والتاريخ طويل؟.

لا يصدق من هذا القول إلا القول الأخير.. نعم، غدًا يأتى جيل عربى يلغى كل ما فعلوه، ولماذا غدًا، إنه قائم قادر لن يولد غدًا، بل سيضرب غدًا وأن غدًا لناظره قريب، ولكن لماذا يطول تاريخ المعاناة ونحن قادرون على اختصاره..؟ ألسنا

جيلاً فاشلاً؟.. أفلا يكفيه فشله فيخون جيلاً ناشئًا.

أما عن الجولة التى ستأتى بعدها جولة، ودولة الضفة والقطاع التى ستحرر باقى فلسطين، فلا أقول إنه عناء. أقول إنه احتيال. نصب. خديعة، إننا لم نحرر الضفة أو القطاع أو حتى جزءاً منها ونقيم عليه دولتنا. ولو تم شىء من هذا ولو فى القطاع وحده، ولو فى مدينة واحدة من مدن الضفة لكان نصراً عظيماً، ولكننا مشغولون بقبول عرض مشروط.. مشغولون بدراسة صفقة دولة فلسطين فى مقابل دولة صهيونية.. مع الاعتراف المتبادل والأمن المتبادل.. ولن ينتهى الأمر عند هذا الحد.. سيستأنف الصهاينة مسيرتهم العدوانية إلى أن تتحقق لهم دولتهم بحدودها التى لا ينكرونها. فقط بالأسلوب الجديد.. أسلوب الاستسلام العربى..

وبعد،

فلماذا استسلم العرب أو يوشكون على الاستسلام؟... أعتقد أن الصهيونية وحلفاءها، بعد أن انهزموا عسكريًا فى جبهة القتال فى أكتوبر ١٩٧٣، فتحوا من جباهنا ثغرات، وغزوا عقولنا. اختصروا الطريق إلى النصر النهائى، فبدلاً من احتلال أرضنا جزءًا جزءًا بدأوا فى احتلال رؤوسنا فكرة فكرة، بدلاً من الاستيلاء على الوطن يحاولون الاستيلاء على البشر ليكون الوطن لهم بعد ذلك بدون حاجة إلى القهر..

جردونا من نظريتنا العربية ودسوا فى رؤوسنا نظريتهم الصهيونية.

رفعوا من فكرنا القومية العربية ووضعوا بدلاً منها القومية اليهودية، ولما انمحت من ذاكرتنا دولة الوحدة قامت بدلاً منها دولة إسرائيل. وكان لهم منذ البداية حلفاء جاهزون. أولئك هم الاقليميون الذين أنكروا أمتهم، فتنكروا لقوميتهم، فمنحوا ولاءهم للتجزئة فيما بينهم. والتجزئة لا تمس بل تتدعم إذا ما أعطيت الصهيونية جزءاً مغتصباً من الوطن العربى مقابل أن تسكت عن اغتصاب الإقليميين باقى أجزائه..

ولما أنكر الإقليميون أمتهم، وفقدوا قوميتهم، تجردوا من نظريتهم، فلم يستطيعوا، وما استطاع الاقليميون قط، ولن يستطيعوا قط، أن تكون لهم استراتيجية موحدة فى مواجهة الصهيونية. ما كان ولن يكون للإقليميين أداة نضال عربية واحدة. ما كان ولن يكون للإقليميين خطة مواجهة واحدة. لم يلتق الاقليميون ولن يلتقوا قط على تحرير فلسطين.. وليس هذا قولاً جديداً..

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٥٨٣١

الترقيم الدولى I. S. B. N:
977-265-437-7